دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	علم النفس مابين تحدي البقاء وإعادة التكيف الهيكلي
المصدر:	مجلة العلوم التربوية والنفسية
الناشر:	جامعة البحرين - مركز النشر العلمي
المؤلف الرئيسي:	حجازي، مصطفى
المجلد/العدد:	مج 2 , ع 2
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2001
الشهر:	يونيو
الصفحات:	143 - 170
رقم MD:	1320
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	EduSearch
مواضيع:	مناهج علم النفس ، علم النفس ، النظريات النفسية ، العولمة ، التوافق ، السلوك ، نظريات علم النفس ، التكيف، علم النفس التربوي ، علم النفس التجريبي ، العلوم الانسانية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/1320

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

علم النفس
ما بين تحدي البقاء وإعادة التكيف الهيكلي

أ.د. مصطفـــى حجـــازي
كليـــة التربيـــة – جامعـــة البحـــرين

علم النفس
ما بين تحدي البقاء وإعادة التكيف الهيكلي

أ . د. مصطفى حجـــازي
كلية التربية – جامعة البحرين

أولاً : مقدمة : البداية والمرتكزات :

علم النفس المعاصر في مختلف فروعه، كما في نظرياته ومنهجياته وتقنياته وتطبيقاته هو ابن المجتمعات الصناعية الرأسمالية وخادم أهدافها الأمين . يعلمنا علم اجتماع المعرفة (معتوق، ١٩٨٨) أن المعرفة رغم أبعادها الكونية وتطبيقاتها العالمية، هي بنت السياقات الاجتماعية - الثقافية التي تنشأ فيها. فليس هناك معرفة مجردة، بل إن كل معرفة هي وظيفية في البداية والمنتهى؛ تخدم احتياجات المجتمع وأهدافه الذي نشأت فيه خلال فترة تاريخية محددة من تطوره. وينطبق ذلك أكثر ما ينطبق على العلوم الإنسانية والتربوية، بما فيها علم النفس . فلقد نشأ هذا العلم ونمى وتفرع منذ أواسط القرن التاسع عشر، وطوال القرن العشرين لخدمة أهداف المجتمعات الصناعية الرأسمالية وتلبية احتياجاتها، مما يشكل مختلف فروعه ووظائفه التطبيقية، كما منهجياته البحثية .

يمكن توليف هذه الأهداف في أربعة كبرى تنصب جميعها على الإنسان الفرد الغربي في الإطار الصناعي الرأسمالي هي على التوالي :

أ - المعرفة والتشخيص .
ب - الإعداد والتأهيل .
ج - الإدارة والتسيير .
د - الصيانة والحفاظ على الفعالية .

وتتوزع مختلف فروع علم النفس لخدمة هذه الأهداف فيما بينها. وقد تتشارك في القيام بواحدة منها أو أكثر. إلا أنه ندر أن خرجت المعرفة المتراكمة في علم النفس المعاصر عن إطار هذه الأهداف، إلا على سبيل الاستثناء.

فعلى سبيل المثال يخدم كل من القياس النفسي، وعلم النفس التجريبي وعلم نفس النمو أهداف المعرفة والتحديد والتشخيص والتصنيف. القياس النفسي نشأ ونمى وعرف هذا التوسع الهائل في الكم والمنحى لخدمة هذا الهدف تحديداً في التربية والجيوش والصناعة، ومن بعدها العلاج. أما علم النفس التجريبي فلقد انصبت اهتماماته منذ بداياته الأولى (السيكوفيزيقا) على دراسة الطاقة البشرية وحركتها، وعلى كيفيات التعلم والسلوك في الصناعة، كما في التربية والجيوش، وعلوم السيطرة .

أما علم النفس التربوي وتفرعاته ومعه علم النفس الصناعي فيخدمان الإعداد والتأهيل في المقام الأول: التحكم، التدريب، واكتساب المهارات الضرورية لخدمة أغراض المجتمع الصناعي. ويشترك علم النفس الصناعي مع علم النفس الإداري وعلم نفس التحكم في الإدارة والتسيير والتوجيه. ولقد أخذ علم نفس التحكم يلعب دوراً متعاظماً في التوجيه من خلال الدراسات على الإدراك والدافعية والمخاوف والرغبات وظواهر العدوى الانفعالية الجماعية، مما يشكل أساس صناعة الموافقة وتشكيل الأذواق والاتجاهات سواء في الداعية والإعلان، أو في الحرب النفسية وعلوم الاستخبارات والسيطرة. أما علوم الصحة النفسية والطب النفسي والعلاج والإرشاد فتقوم أساساً بوظائف صيانة الطاقات البشرية المنتجة والحفاظ على كفاءتها وفاعليتها (وقاية، وعلاجاً، ونماءً).

ويشكل كل من التحكم والسيطرة والتوجيه القاسم المشترك لكل هذه المهام، وفروع علم النفس التي تخدمها. ذلك أن التحكم بالإنسان وطاقاته، إنتاجاً واستهلاكاً وتكيفاً سلوكياً و انفعالياً يشكل المشروع الكبير للمجتمع الصناعي الغربي. على أن هذا التحكم يتوسل أساليب ناعمة، لضمان نمو الطاقات وحسن توظيفها وفاعلية أدائها. هنا يلعب علم النفس دوره الأساسي.

التحكم الناعم (والفعّال بسبب نعومته ذاتها، ومرونته وخفائه، وتركه لهامش كبير من حرية الحركة للإنسان الفرد) يندرج ضمن مشروع العقل الكبير الذي يمثل البعد التنويري في الحضارة الصناعية الغربية. وحين نذكر العقل فإننا نعني مباشرة السيطرة من خلال الفهم والاستيعاب. تلك هي الدلالة اللغوية الغربية لمصطلح الذكاء Intelligence : أي القدرة على الفهم، والقابلية للفهم. وهل يعدو علم النفس في مختلف فروعه ونظرياته ومنهجياته وتطبيقاته هذه الغاية الكبرى: عقلنة الظواهر والدوافع والسلوكات كمنطلق لترشيد الممارسة ؟ هل تخرج النظريات السلوكية والمعرفية التي تحتل مركز النجومية في علم النفس

عن هذه الغاية : التحكم والتيسير من خلال الفهم والاستيعاب ؟ حتى التحليل النفسي لا يخرج عن هذا النطاق، رغم خوضه في خفايا النفس البشرية وذهابه بعيداً في درس القوى النزوية والحيوية في ديناميا تها وتجلياتها الأكثر إلغازاً. لا يعدو مشروع التحليل النفسي، على الصعيد الفلسفي، مهمة عقلنة غير العقلاني في النفس البشرية من خلال كل ما قدم من مفاهيم وأطروحات وممارسات .

وماذا يعني الشفاء في التحليل النفسي، كما في سواه من طرائق العلاج سوى هذه السيطرة العقلية الذاتية على القوى النزوية وتوجيهها لخدمة مصالح الفرد والمجتمع؟

ذلك هو بالمناسبة الشعار الذي يطرحه العلاج المعرفي الحديث الذي يحتل مركز النجومية بين كل طرق العلاج النفسي الراهنة: «سيطرة العقل على المزاج» Mind over Mood (Padesky,1995). أما سكيز فلقد كان أكثر صراحة حين سخر من الحرية والكرامة وقال بالتحكم المباشر والموجه بل والمفروض من خلال أعماله الكبرى في تعديل السلوك (Skinner,1974 ؛ الخطيب، ١٩٩٥) .

نلخص ما سبق في إعادة تأكيد أن علم النفس نشأ وتفرع واتخذ مختلف مناحيه ومنهجياته وتطبيقاته لخدمة أهداف المجتمع الرأسمالي الصناعي في القرنين التاسع عشر والعشرين. ذلك هو ما استورده العالم العربي في صورته الجاهزة واستهلكه وما يزال، بدون توقف عند ضرورة ملاءمته لأهدافه النوعية النابعة من تاريخه وظروفه وتوجهاته؛ مما سيكون لنا رجعة إليه. إلا أن ما نود طرحه الآن هو نوعية التحولات في الوظائف والمهام المدعو إليها علم النفس مع إطلالة العولمة وما حملته معها من حضارة ما بعد الحداثة. فلقد حملت العولمة معها، كما هو معروف تحولات كبرى في السياسة والاقتصاد والإنتاج والثقافة؛ مما ولّد ظروفاً جديدة، وتحديات مستجدة وحالات مجتمعية وإنسانية غير مسبوقة في المجتمع الصناعي الرأسمالي التقليدي .

ما هي التحديات التي ستطرح على علم النفس في توظيفاته، كما في منهجياته؟ سؤال أصبح ملحاً التفاكر بشأنه. ذلك أن التكليف الهيكلي Structural adjustment الذي تنادي به العولمة على صعد الاقتصاد والسياسة، وما هي بصدد ترويجه على مستوى الثقافة، ستخلق إنساناً جديداً بالمعنى الثقافي والنفسي وحتى البيولوجي. وبالتالي فإن علم النفس سيكون مدعواً ولا شك إلى إعادة هيكلة بدوره، شأنه في ذلك شأن العلوم الإنسانية على اختلافها .

إلا أنه لا بد، قبل الخوض في إعادة الهيكلة هذه، من إشارة سريعة إلى مرتكزات علم النفس الفلسفية والإيديولوجية. وهي إشارة ذات أهمية جوهرية، في تعاملنا مع هذا العلم في العالم العربي ومشاريع توظيفه.

يرتكز علم النفس الغربي الذي نتعامل معه على الفردية كأساس أيديولوجي. فهو علم نفس الفرد في المقام الأول : في خصائصه، وحاجاته ودوافعه وسلوكاته وشخصيته .

تعني الفردية Individualism (فنيانس، ١٩٨٨)، التي تطغي على الفكر الغربي الحديث، كل نظرية أو كل اتجاه يرى في الفرد والفردي إما أكثر صور الواقع جوهرية، وإما أسمى درجات القيمة. «فهي بالتحديد، مذهب من يرى أن الفرد أساس كل حقيقة وجودية، أو مذهب من يفسر الظواهر الاجتماعية والتاريخية بالفاعلية الفردية، أو مذهب من يرى أن غاية المجتمع رعاية مصلحة الفرد والسماح له بتدبير شئونه بنفسه» (فنيانس، ١٩٨٨، ص ٩٣١). لقد كسر الغرب خلال ثورته الصناعية التي امتدت ثلاثة قرون، وواكبتها ثورة في الفكر والفلسفة، كل الانتماءات والبنى الاجتماعية التقليدية من قبيلة وإقطاع. وأحل محلها فلسفة الفردية على مستوى السياسة، كما الاقتصاد، كما دراسة الإنسان وأحواله. الفرد هو الأساس، وهو وحدة الدراسة والبحث والتعامل. ولقد قام علم النفس في مختلف فروعه وتطبيقاته على هذا الأساس الفردي. وهو ما يفسر لنا هامشية علم النفس الاجتماعي، كما يفسر نظرة التعالي التي جابه بها الدارسون الغربيون الظواهر الجماعية، حتى وقت متأخر جداً .

أدت هذه النظرة الفردية التي حكمت أفق الرؤية والمقاربة والتعامل بالعديد من علماء النفس إلى الوقوع في أخطاء علمية لا يستهان بها، فرضت كأنها قضايا مسلمة حتى أتى من ينقضها. ذلك ما حدث مثلاً مع (فرويد) وقوله بالنرجسية كحالة إنسانية أولية تصبح العلاقة والصلة مسألة لاحقة عليها، خلال مراحل النمو وتفتح الطفل على من حوله (الأم ثم الوالدين) (لا بلانش، ١٩٨٧). وكان لا بد من انتظار عدة عقود كي يأتي تلامذة (فرويد) ويتعاونوا مع علماء النمو والإيثولوجيا، ويقوموا بدارسة عيادية دقيقة علمياً كي يتضح أن الصلة والعلاقة فطريتان كالرضاعة تماماً (حجازي، ٢٠٠٠). وأن الطفل مزود بآليات عصبيته دماغية للعلاقة منذ البدء، وأنه باحث عن العلاقة ومحرض عليها ومستجيب لها منذ أسابيعه الأولى بعد الميلاد. وأما النرجسية والانغلاق على الذات فهي حالة استجابية لفشل العلاقة الأولية. لقد حدث خلط بين الكيان البيولوجي القائم بذاته، وبين الفردية على الصعيد النفسي الاجتماعي .

وهكذا استوردنا علم النفس الفردي بصيغته الجاهزة وحاولنا تطبيقه على شرط إنساني يقوم على الجماعة والصلات في الأساس. وما زلنا نتحدث عربياً عن هرم ماسلو وتدرج حاجات الفرد وفي قمتها تحقيق الذات الفردية كأمر مسلم به، مع أن الثقافة العربية الإسلامية تجعل غاية الوجود فيما يتجاوز الفرد (العاني، ٢٠٠١)، وتضع القيمة العظمى في التنكر للذات تحديداً. لقد قام علماء نفس اليابان بتصويب المنظور في توطينهم لعلم النفس جاعلين الجماعة هي المرجع وهي وحدة الدرس والبحث (خليفة، ٢٠٠٠) .

بالطبع لا بد لنا بدورنا من تصويب المنظور، والقيام بتوطين علم النفس. إلا أننا نطرح هنا سؤالاً حول مصير الفردية وتحولاتها في عصر العولمة التي بمقدار ما تعلي من شأن الفرد فإنها تحاول نشر ثقافة القطيعية على المستوى الكوني من خلال كل برامج قولبة البشر.

نعني بالقطيعية تنميط الجيل الشاب في المأكل والملبس والمشرب والثقافة والترويح والمرجعيات المعرفية والأذواق والقيم والنظرة إلى الذات والكون، فيما يعرف في الأدبيات «بأمركة الكون». ثم ماذا بشأن مصادرة الفردية عندنا من قبل النظم الاجتماعية والسياسية؟ وإلى أي مدى يتعين إعادة الاعتبار وحرية الكيان والقرار لها، كما ينادى به محمد جواد رضا بما هو السبيل إلى المواطنة الفاعلة وصناعة المصير ؟

لقد ربح علم النفس الأنجلوسكسوني في تطويره وانتشاره الأمريكي المعركة في مجابهاته مع علم النفس الأوروبي اللاتيني. يقوم الأول على الفلسفة الحسية - التجريبية في مقابل تأسيس الثاني على الفلسفة المثالية. ومن المهم جداً لنا نحن العرب الذين استوردنا هذا وذاك معرفة هذه المرتكزات الفلسفية كي نتمكن من استيعاب نتائج تطبيقاتنا ومدى تلاؤمها مع خصائصنا وواقعنا.

يشيع في العالم العربي علم النفس الأمريكي خصوصاً. وهو قائم على الفلسفة الحسية - التجريبية بدءاً من فرنسيس بيكون ووصولاً إلى وليم جيمس ومروراً بكل من لوك وبركلي وهيوم وسواهم (وهبة،١٩٨٨). قوام هذه الفلسفة على صعيد منهج البحث هو التمسك بالمحسوس والملموس، وما هو قابل للملاحظة والقياس بوصفه وحده يمثل الحقيقة والواقع ويشكل موضوع العلم . أما المثاليات والروحانيات والوجدانيات فهي تدخل في مجال الغيبيات وتخرج من نطاق البحث العلمي .

تشكل السلوكية التي احتلت نجومية المسرح لما يزيد على نصف قرن في أمريكا، ومن سار في ركبها، ومنهم معظم أقطار العالم العربي، المثل الأبرز: فقط الظواهر السلوكية البرّانية القابلة للملاحظة والقياس والتعامل التجريبي هي موضوع العلم. فإلى أي مدى يستوعب علم النفس هذا واقعنا وتكويننا النفسي المتشبع بالأبعاد الروحانية والقوى المتعالية ؟

وهل أن هذه الممارسات النفسية التي تتعامل مع الظواهر السلوكية البرانية تخدم بما يكفي القوى الدينامية المحركة لوجودنا والمحددة لنظرتنا إلى الذات والكون؟ أم أنها تظل مقاربات سطحية يفلت واقعنا الحي منها ومن نماذجها البحثية؟. هناك إذاً مهمة عاجلة على الصعيد العربي تتمثل في إعادة النظر في استهلاك المعرفة النفسية المستوردة بشكلها الخام، إذا أردنا فعلاً توظيف علم النفس لخدمة أغراض التنمية الفعلية، وتعبئة الطاقات الحية وإطلاق المحركات الوجودية. قضية أخرى كبرى للتفاكر بشأنها والشغل عليها على صعيد مهام علم النفس المستقبلية عربياً.

نعود إلى الموضوع الذي يشكل عنوان هذه الورقة، لنتوقف عند المهام المستجدة لعلم النفس في عصر ما بعد الحداثة، أو بكلمة أكثر شيوعاً عصر العولمة. أي أهداف سيخدم وعلى أي قضايا سيركز بحثه مع سرعة التحولات الكونية على كل الصعد التي تتخذ وتائر غير مسبوقة؟ نركز على بعض القضايا ذات الصلة المباشرة بتطبيقات علم النفس في التربية والتنشئة، مما يشكل موضوع اشتغالنا المباشر. ولكن وقبل الخوض في إعادة هيكلة علم النفس من حيث المهام والمقاربات والمنهجيات يتعين أن نتوقف عند قضية أساسية قبلية: هل سيظل هناك علم نفس أصلا؟ أم أن الثورة الجينية وأبحاث علوم الأعصاب ستجعل معارفنا النفسية بائدة ونافلة ؟ ذلك هو تحدي البقاء الذي يجابهه علم النفس راهناً ومستقبلاً .

ثانياً : علم النفس وتحدي البقاء :

علم النفس هو وليد تزاوج البيولوجيا والسيسولوجيا. وبتعبير آخر هو ذلك المجال الذي تحدد البيولوجيا أرضه ومرتكزاته، بينما تحدد السيسولوجيا سقفه وإطاره. فالنفسي مهما كانت تجلياته (معرفياً، عاطفياً، سلوكياً) يقوم على نشاط الكيان البيولوجي؛ مما يجعل الفصل بين العقلي والعصبي - الجسدي أمراً زائفاً إلى حد بعيد. حتى أكثر حالات النفس البشرية نبلاً وسمواً مشروطة بمرتكزاتها البيولوجية الخاصة بكيمياء الدماغ، أو نوعية الرصيد الوراثي . (حجازي، ٢٠٠٠).

ومع الثورة الهائلة في الهندسة الوراثية، والاكتشافات المتسارعة التي تنجزها علوم الأعصاب، يصبح السؤال مشروعاً حول بقاء علم النفس واستمراره. ذلك أن هذه الوراثة وتلك الاكتشافات هي بصدد قضم منطقة نفوذ واشتغال علم النفس بشكل متزايد كل يوم. حتى أنه أصبح التساؤل مشروعاً حول وظيفة علم النفس المعرفية: هل كانت النظريات النفسية المعروفة كلاسيكياً (السلوكية والتحليل النفسي على سبيل المثال) عبارة عن صياغات معرفية افتراضية لسد الثغرة في معارفنا الجينية والكيميائية العصبية، واضطراباتهما ؟ إذ كلما أنجز العلم تقدماً على هذين الصعيدين تقصلت منطقة نفوذ علم النفس وطروحاته التفسيرية.

ويذهب البعض إلى حد القول بأن مستقبل الصحة النفسية والمرض النفسي، على سبيل المثال، يكمن تحديداً في مستقبل الاكتشافات في هذين المجالين اللذين أخذا يحتلان مركز النجومية بدلاً من نظريات علم النفس الكلاسيكية. نشير بسرعة إلى إنجازات كل من علوم الموروثات، وكيمياء الدماغ التي أخذت تطغى على التفسيرات النفسية .

أما علم الموروثات وهندستها فهو يشكل أحد أكبر الثورات العلمية في نهاية القرن ومستقبلاً، بالتوازي مع ثورة المعلوماتية والاتصال. وتتسابق مراكز البحث الكبرى لرسم الخريطة الجينية للإنسان ولبقية الكائنات الحية، نظراً لما توفره من إنجازات في الطب والغذاء ومحاربة الآفات وتخليق أنواع متطورة من النبات والحيوان، وتقديم الحلول لمشكلات صحية مستعصية. لقد تم رسم الخريطة الوراثية للإنسان في وقت أبكر بحوالي عقد من الزمان عما كان متوقعاً. وبقي أن نعرف الوظائف الفعلية لكل موروثة أو كل تجمع من الموروثات، وكيفية صحتها أو اختلالها؛ مما يمكن من وضع طرق العلاج المناسبة.

والبحث جار بتقدم كبير عن الاضطرابات الجينية للعديد من الأمراض النفسية والعصبية التي تهم موضوعنا، بفضل ورشة نشطة جداً في العديد من الجامعات العالمية الكبرى. وهكذا بدأ العلماء باكتشاف اختلال جيني لكل من التوحد Autism، وصعوبات التعلم والنطق Dyslexia، وصولاً إلى مرض الفصام والإدمان الكحولي والاضطرابات الجنسية، واضطرابات الشهية (الشره خصوصاً) والميول إلى عدم الرضا ونكد العيش المسئولة عن نسبة من سوء التوافق الزوجي، والتصدع الأسري والصعوبات العلائقية، وكذلك التعلم، وصولاً إلى مرض الهوس والاكتئاب ومختلف السمات والخصائص النفسية والعقلية، بما فيها الذكاء. وهذا ما حدا بأستاذ علم النفس في جامعة هارفرد إلى القول : «لقد تغير الحال

كثيراً في علم النفس في أيامنا . فمن النادر أن يبقي مجال من مجالات البحث في علم النفس بمعزل عن تأثير انفجار المعلومات الجديدة حول الدماغ، والبيولوجيا وعلم الموروثات» (Westen, 1999, P.125). ولقد أدى ذلك إلى نشوء فرع جديد من فروع المعرفة يسمى «علم الموروثات السلوكي» Behavioral genetics ، يهتم أساساً بدراسة العلاقات والتفاعلات ما بين المورثات والبيئة في تشكيل العمليات العقلية والسلوكية .

لن نخوض في تفاصيل هذه الاكتشافات وما تحمله من تحولات مذهلة في النظرة إلى النفس وأحوالها وتجلياتها. بل نكتفي بالإشارة إلى أهم الأسماء وأشهر مراكز البحث وما قدمته من نتائج. أظهرت أبحاث معهد الصحة الوطني الأمريكي أن هناك جينات فاعلة على الصبغيات ٧ ، ١٣ ، ١٥ في مرض التوحد. وأظهرت أبحاث قام بها ديفيد بول من جامعة ييل وجود موروثة على كل من الصبغية ١٥ والصبغية ٦ تتحكم بسلامة الوعي الصوتي وقراءة الكلمات. كذلك وجد باحثان من جامعة أوريغون علاقة بين بعض المورثات وظاهرة الاعتماد على الكحول وتحمله. ويلخص آزار (Azar, 1997) نتائج الدراسات حول التعلم الشرطي وعلاقتها ببعض الموروثات المسئولة عن تسلسل عملية التعلم هذه وحفظها في الذاكرة. فإذا اختلت إحدى هذه الموروثات اضطربت معها عملية التسلسل مما يؤدي إلى انهيار عملية التعلم. كم نحن بعيدون عن نماذج واطسن السلوكية التقليدية وسكنر الإجرائية!!

يذهب روبرت بلومن R. Plomin وهو من كبار العلماء في موضوع الأبحاث الجينية وعلاقتها بالسلوك، إلى أن هناك موروثة لكل سمة إنسانية، أو سلوك تقريباً، بما فيها الشخصية والذكاء، والفصام، وجنون العظمة، واضطرابات السلوك. (المرجع نفسه،١٩٩٧). فماذا يتبقى من علم النفس إذا صح هذا القول؟ لا بد من عدة ملاحظات سريعة كتمهيد لإجابة لاحقة تشكل خلاصة هذا الحديث. أولها أن نتائج الأبحاث على الجينات، مما تمت الإشارة إليه، ليست قاطعة بعد، ولا هي كلية. فهناك تباين في نتائج الأبحاث حول نفس المسألة. ثانيها أن الخريطة الجينية هي بداية الطريق، ويتبقى الجهد الأكبر المتمثل في معرفة وظائف كل من هذه الموروثات وتكوينها الداخلي (العصيات التي تتكون منها والتي تمثل الأحرف الوراثية وتسلسلها والتي يتراوح عددها ما بين ١٠٠٠ و ٢ مليون حرف تبعاً لنوع الموروثة). ثالثها أن الموروثات لا تفعل فعلها جسدياً أو عصبياً أو نفسياً بشكل مباشر بل من خلال ما تنتجه من بروتينات. كما أن نشاطها الوظيفي هذا

متأثر تماماً بالبيئة الحيوية الداخلية للنظام الوراثي، وبيئته الأيكولوجية الخارجية. ويتم التأثر بالبيئة الأيكولوجية من خلال الموروثات الضابطة Regulators التي تحكم نشاط الموروثات البنائية أو توقفه (VASTA, R. & als, 1995). وهو ما يفتح ملف التفاعل الحيوي - الأيكولوجي كاملاً، ومعه يعود علم النفس ابن هذا التزاوج ليلعب دوره النشط. وأخيراً لقد أصبح معروفاً أن السمات النفسية العقلية والشخصية هي نتاج تفاعل عدد كبير من الجينات التي تنتظم في تكتلات متفاعلة مع البيئة الحيوية الداخلية والأيكولوجية الخارجية. وهو ما حدا ببعض علماء الوراثة إلى القول بأن الذكاء مثلاً، وكذلك سمات الشخصية تعود في ٥٠٪ منها إلى نشاط النظام الجيني وتعود في الـ ٥٠٪ الأخرى إلى فعل النظام الإيكولوجي. وهكذا أصبح علماء النفس (Westen, 1999) أقل اهتماماً بتجزئة Parceling الدور النسبي لكل من الموروثات والبيئة، وأكثر اهتماماً بفهم التفاعلات المعقدة لهذين النظامين في مختلف حالات الصحة والمرض.

أما على صعيد علوم الأعصاب، فلقد أصبح من النادر أن يبقى مجال من مجالات البحث في علم النفس بمعزل عن هذه الثورة المعرفية الجديدة المتمثلة في علوم الأعصاب المعاصرة التي يميز مونكاستل حوالي ١٨ فرعاً معرفياً منها، تتداخل فيما بينها إلى حد كبير (فرنون، ومونكاستل، ١٩٩٩) .

نحن هنا إزاء الظاهرة الأكثر فرادة وتعقيداً وغنى في الكائنات الحية، ظاهرة الدماغ البشري الذي يحتوي ما يقارب ٣٠ مليار خلية. يقوم بينها ما يزيد على مليون مليار وصلة. وهو ما يجعل إمكانات التوصل العصبي بين داراته ذات طبيعة فلكية (جيرالد أدلمان، ١٩٩٩). وينمو الدماغ من خلال التوصيل والتشبيك المستمرين وغير المستقرين تبعاً لمختلف المثيرات والخبرات. كما تتصف هذه التوصيلات بالتعقيد والتنوع الشديدين، مما يجعل كل دماغ حالة فريدة من نوعها، حتى لدى التوائم المتطابقة .

وتبشر علوم الأعصاب بإنجازات معرفية مفتوحة الآفاق. إلا أن ما يحتل النجومية راهناً هو أبحاث الموصلات أو الناقلات العصبية Neuro-Transmitters، إذ هي أصبحت سيدة المسرح في العلاج الطبي - النفسي الكيميائي.

ويعادل الحماس لهذه الناقلات العصبية ما يشهده علم الموروثات من حماس. ويتم كل يوم اكتشاف الجديد منها، مما يرتبط باضطرابات نفسية أو دماغية معينة، تصنع لها العقاقير العلاجية .

وهكذا يتفنن أطباء العقل ومعهم علماء الأعصاب باكتشاف اختلال لموصل عصبي لكل من أمراض النفس والسلوك المعروفة أبرزها: نوبات الذعر والقلق، والعصاب الهجاسي القهري، واضطراب المزاج الدوري، وكل من مرض الفصام والرعاش والنشاط الزائد. أما أبرز الموصلات العصبية المسئولة عن هذه أو تلك منها فهي الدوبامين، والسيروتونين، والجابا، والنورأبينفرين. وبذلك يتحول العلاج النفسي لكل اضطرابات النفس والسلوك، مما وضعت لها النظريات النفسية شديدة التعقيد والغنى، إلى عملية طبية كيميائية تتمثل في موازنة وتعديل حالة الموصلات العصبية ذات الصلة .

ورغم التقدم الذي لا مراء فيه على هذا الصعيد، إلا أن المعطيات مازالت في بداياتها، ومازالت الأبحاث حولها غير قاطعة. ومازال الغموض الكبير يحيط بأسباب اختلال عمل هذه الموصلات. ومازال يتعين الانتظار حتى تتقدم أبحاث علوم الأعصاب بما يكفي في فهم آليات عمل الدماغ البشري كي نصل إلى آراء راجحة في الموضوع (Davison & Neal, 1996) .

نعود إلى تحدي البقاء الذي يجابه علم النفس فنقول: «إن هناك فعلاً تحولات كبيرة ستطرأ على هذا العلم مع تقدم الأبحاث والفهم على صعيدي علم الموروثات وعلوم الأعصاب. إلا أن علم النفس سيبقى، طالما أنه وليد تزاوج البيولوجيا والسيسيولوجيا الذي هو تزاوج مرشح للاستمرار بحكم طبيعة الأمور. فالموروثات لا تعمل معزولة عن محيطها الأيكولوجي. وكل محاولات الدراسة المختبرية تظل مقاربات مصطنعة ومجتزأة تعاني من التقصير المعرفي الذي يعاني منه الباحثون أنفسهم، طالما لم يتعاملوا مع الظواهر الكلية المعقدة. العزل يساعد على الفهم البنيوي بالطبع، إلا أنه لا يوفر مقومات فهم الواقع الحي ونشاطه الوظيفي.

وإذا كان علم النفس غير مرشح للزوال، فهل سيبقى على حالته التقليدية: في نظرياته ومنهجياته وتطبيقاته ؟ الجواب الذي يحمل نصيباً كبيراً من اليقين هو كلا .ستطرأ تحولات في المفاهيم والنظريات من أبرزها مثلاً صعود نجم علم النفس المعرفي ذي الصلة الوثيقة بعلوم الأعصاب .

على أن الأهم هو التحول في اهتمامات علم النفس التقليدي من دراسة حالات المرض والاضطراب إلى حالات وظواهر الصحة والعافية والنماء. فإذا كان المرض قابلاً لأن يرد لأسباب محددة، فإن الصحة والنماء يبقيان ظواهر مفتوحة على التنوع والمرونة والتعقيد.

وسيكون لعلم النفس دوره الكبير على هذا المستوى تحديداً، شريطة أن يخرج من عزلته وتقوقعه في نماذجه الصغرى، ومقارباته المجتزأة لموضوعات بحثه. سيكون عليه أن يتعلم المشاركة والتعاون في البحث والفهم والتفسير والتنظير، مع بقية العلوم الإنسانية وعلوم الحياة سواء بسواء. ذلك أن الظواهر المعافاة هي تركيبة دينامية بطبيعتها تفلت من الاختزال النظري أو البحثي، من قبل هذه أو تلك من المقاربات وحيدة الجانب .

من ضمن التحولات في النظرية والمنهج والمقاربة يبرز مثلاً وبشكل متزايد الاهتمام بالتفكير الإيجابي، والمواقف الإيجابية في التعامل مع الحياة اليومية وقضاياها وتحدياتها. والتفاؤل المتعلم (Seligman,1998). كما تبرز موضوعات الذكاء الانفعالي وتطبيقاتها المتزايدة (Golman, 1997) في المدرسة والعمل والتفاعل والتواصل وإدارة الحياة. وكلاهما من مقومات بناء الاقتدار النفسي -الاجتماعي - المعرفي المطلوب بإلحاح متزايد في التعامل مع تحديات المستقبل وتعقيداته وسرعة تحولاته.

أمام علم النفس مهام كبيرة ومثيرة للكثير من التحديات والحيوية والحماس في مجال الاهتمام بالأسوياء وتعزيز صحتهم وإطلاق طاقات نمائهم. هناك إذاً مهمة إعادة تكيف هيكلي يتعين على علم النفس القيام بأعبائها، مما يحتاج إلى وقفة مستفيضة .

ثالثاً : علم النفس ومهام إعادة التكيف الهيكلي :

مهام تكيف علم النفس مع تحديات المستقبل ومتطلباته متعددة الاتجاه والاهتمام والمستوى. نقتصر منها على بعض الأمور الأساسية ذات الصلة بالتربية وبعلم النفس الاجتماعي العربي من حيث الموضوعات. ونسلط الضوء على المستوى المكبّر في دراسة ظواهر العولمة الاجتماعية النفسية، بدلاً من المستوى الفردي المصغّر. ونبحث في ضرورات تغيير المقاربات البحثية من النماذج النفسية أحادية الاتجاه إلى النماذج الكلية المعقدة. هذه المهام تطرحها، بل تفرضها تحولات العولمة المعروفة، حيث كل شيء يتحول بشكل متسارع، وحيث تتهاوى حدود الزمان والمكان، وحيث ينفتح كل شيء على كل شيء آخر في حالة من الاعتماد المتبادل، وحيث تتفاقم الأوجه المظلمة المتمثلة في التلوث والفساد الكوني، وتفشى ظواهر العنف والتعصب، وتخلخل البنى الاجتماعية .

١- التحول على مستوى موضوعات الاهتمام :

إذا أخذنا قطاع التربية والتنشئة فإن هناك ملفين كبيرين يتعين أن يهتم بهما علم النفس. الأول هو التحول من الاهتمام بالمراهقة إلى الاهتمام بالشباب. أما الثاني فهو التحول من نجومية الدرجات إلى نجومية النجاح في الحياة .

١-١ التحول من دراسة المراهقة إلى دراسة الشباب :

كانت دراسة المراهقة تحتل مكانة ذات أهمية في علم نفس النمو، بوصفها المعبر من الطفولة إلى الرشد، وكذلك مرحلة العواصف والأزمات والقلق للمراهق ذاته ولأسرته ومدرسته، ومعهما بقية المؤسسات المعنية بالتنشئة. وكانت مرحلة الشباب هامشية من حيث درجة الاهتمام بها، يحيط بها نوع من الغموض أو الضبابية، وصولاً إلى مرحلة الرشد التي تمثل موضوع علم نفس الكبار.

مع العولمة وانفجار المعلومات وتفتح الأجيال الناشئة على الدنيا، وتوافر مقادير هائلة من إمكانات المعرفة وحرية السلوك وتزايد درجة التسامح الاجتماعي، وتراخي الفصل بين الجنسين أو زواله، لم تعد المراهقة تمثل أزمة فعلية، أو على الأقل لم يعد لها مركز الصدارة في أزمات النمو. العولمة تبرز ملف الشباب وتطرحه بحدة خاصة على الصعيد العالمي. هناك راهناً وفي المستقبل المنظور أزمات شباب، وقضايا شباب ستتزايد في حجمها وانتشارها وحدتها. وعلى علم النفس مع غيره من علوم الحياة والعلوم الإنسانية (الاجتماع، الاقتصاد، والسياسة والإعلام) الاهتمام الجدي بها دراسة وتحليلاً، وصولاً إلى بلورة رؤى للتعامل الفعّال مع الشباب الذي أصبح يشكل الكتلة الكبرى في جل المجتمعات في العالم الثالث. هناك ضرورة متزايدة للاهتمام بقضايا الشباب والتفاكر في كيفية توفير فرص بناء المستقبل أمامهم فيما يتجاوز الاهتمام بالرياضة وأنديتها ومؤسساتها؛ مما درجت العادة على اختزال قضاياهم ضمنها .

الشباب هم أبطال العولمة ونجومها، كما أنهم ضحاياها الأكثر عدداً. فالعولمة هي حضارة الشباب في المقام الأول بدءاً من استهلاك منتجاتها الثقافية والإعلامية والإعلانية والرياضية والمعلوماتية. كما أن الشباب هم أبطال العولمة على صعيد تكنولوجيا المعلومات وقواعدها من حيث الاستهلاك والتشغيل، ومن حيث القيادة. والعولمة ترتكز على حماسة الشباب وحيويتهم وإقدامهم ومغامراتهم وتوجههم نحو

آفاق المستقبل ذات الانفتاح المتزايد. والشباب هو الجيل الوحيد القادر على مواكبة تحولات العولمة المتسارعة. وهو الوحيد الذي ينخرط فيها بكليته ويتعامل معها من موقع الألفة والقدرة. وهو أخيراً الوحيد الذي تشكل تحولات العولمة قوام عالمه وأنشطته في العمل والترويح والتواصل والنظرة إلى الذات والوجود. فالشباب راهناً ومستقبلاً هو «الكائن في - العولمة» في فرصها وتحدياتها وإمكاناتها كما أخطارها ومآزقها (حجازي،٢٠٠١) .

وعلى علم النفس أن يهتم بالشباب ويدرس انخراطهم في العولمة وآثاره النفسية والسلوكية؛ من مثل الإدمان على الإنترنت والعيش في الواقع الافتراضي (العيش مع شاشة الإنترنت) الذي بدأ يزاحم بالنسبة إليهم الواقع الفعلي. كذلك هو شأن ثقافة العولمة ورموزها وأبطالها وقيمها وما تحاول إنجازه من تنميط كوني للشباب (مما يسمى بأمركة الشباب). وعلى علم النفس أن يدرس عمليات التنميط هذه ويتبين آثارها على الهوية والانتماء، وعلى القيم والتوجهات. كما أن عليه أن يدرس ما تقوم به العولمة من سلخ الشباب عن ذاكرتهم وتاريخهم وجغرافيتهم كي تستبدل بها صناعة المستقبل كهوية للشباب، والانتماء إلى العالم، أو اللا مكان. وعليه أن يدرس ظاهرة الاستفراد بالشباب وتغريبهم عن انتماءاتهم التقليدية. كما عليه أن يدرس التحولات المتسارعة في علاقة الشباب بالأسرة والسلطات المرجعية التقليدية، حيث هناك بوادر تحول جدي في المرجعيات. الشباب لم يعد في الكثير من الأحيان يتخذ له من الكبار وخبرتهم وحكمتهم مرجعاً موجهاً لحياته وتوجهاته المستقبلية، إذ أحل محلهم مرجعية الشبكة WWW . ولا مبالغة إذ قلنا: إن هناك ميلاً متزايداً لأن يصبح جيل الشباب هو أبناء «الدوت - كوم» وإليها ينتمي. فما هي الآثار المترتبة على ذلك على مستوى صورة الذات ومفهومها والسلوكات والتوجهات والعلاقات والانتماءات ؟ ملفات ساخنة على علم النفس أن يتناولها بالدرس.

كذلك فإن الشباب هم ضحايا العولمة، سواء لجهة استخدامهم كمادة لأستهلاك ثقافتها ومنتجاتها ومادة قولبتها وأمركتها للكون، أو لجهة البطالة المتصاعدة في الأعداد والمتفاقمة كظاهرة عالمية، والتي تضرب الشباب حتى أكثره إعداداً في المقام الأول. فالعولمة تحتاج إلى نسبة من البطالة كي تحافظ على تنافسية السوق. وهي ليست ملتزمة بكتلة الشباب المتزايدة حجماً و خصوصاً في بلدان العالم الثالث. وعلى علم النفس أن يدرس هذه الظاهرة التي قاربت الوصول إلى درجة الخطر: كتل الشباب المهمّش (الجامعي منه وغير الجامعي) ومعاناته واحباطاته واحتقاناته الكامنة .

هذا الشباب المغبون والمهمّش والمعرض لأن يصبح وقود العنف والتطرف وأداتهما، مع ما يلحق ذلك من تهديد للأمن الاجتماعي، هو الموضوع الأكثر إلحاحاً الذي يتعين على علم النفس أن يدرسه في مشاريع بحثية متكاملة مع العلوم الإنسانية الأخرى. هناك ما يبرر فعلاً تأسيس علم الشباب.

١-٢ التحول من نجومية الدرجات إلى نجومية النجاح في الحياة :

تتعامل التربية التقليدية مع الطفل المتعلم وكأنه آلة معرفية، وحيوان اختبارات. المهم هو دراسة المقررات والنجاح في اختباراتها. ولهذا فهي تركز على نجومية الدرجات. وترفع عالياً راية نسب الذكاء ونسب التحصيل. وتتحول العملية أحياناً إلى حالة من الهوس الفعلي بالدرجات والنسب والمعدلات والمجاميع، ينخرط فيها الأهل بكليتهم وفي حالة من الضغوط النفسية غير اليسيرة، معززين بذلك التوجهات المدرسية. لا شك مطلقاً بأهمية التحصيل وبناء القاعدة المعرفية. إلا أنه يتعين ألا تظل فوقية تلقينية بسبب من حاجة المعلمين إلى إنهاء المنهاج في حالة من السباق مع الزمن .

إن التحولات المستقبلية التي تحملها معها العولمة على صعيد سوق العمل وعلاقاته وتفاعلاته وانفتاحه على التنافس اللامحدود، وظروف انعدام الضمانات المستقبلية وعدم الاستقرار الوظيفي، والحاجة إلى درجة عالية من الصحة النفسية والكفاءة الاجتماعية بالتوازي مع الاقتدار المعرفي، أدت إلى رفع شعار الذكاء الانفعالي (Golman,1997) والذكاءات المتعددة (Gardener,1983) وإدخالهما إلى عالم الدراسة. وهذا تحديداً ما دعا (جاردنر) إلى القول بأنه آن الأوان كي نصرف وقتاً أقل في تصنيف رتب الأطفال، ووقتاً أطول في مساعدتهم على اكتشاف كفاءاتهم ومواهبهم الطبيعية وتنميتها. إذ إن هناك المئات من طرق النجاح في الحياة.وهناك العديد من القدرات المختلفة التي تساعد في الوصول إليه (حجازي، ٢٠٠٠).

على أننا نذهب أبعد من كل من الذكاءات المتعددة والذكاء الانفعالي، إلى القول بضرورة تثوير السياسات التربوية. فما تحتاجه تحديات المستقبل هو بناء الاقتدار الكياني المتمثل في تنمية الكفاءة العامة للشخصية الكلية، فيما يتجاوز نجومية الدرجات التحصيلية، وصولاً إلى نجومية النجاح في مشروع الوجود. ويتمثل الإعداد لنجومية الحياة الذي يتعيّن أن تتكاتف علوم الأعصاب والعلوم الإنسانية والتربوية والنفسية على بنائه وتوفير مستلزماته

في طاقم من الكفاءات التي تشكل في تكاملها وضعية الاقتدار الكياني. أبرز مقوماته هي الكفاءات الخمس التالية : الكفاءة المعرفية - الإنجازية، الكفاءة النفسية - العاطفية، الكفاءة الاجتماعية - التفاعلية، الكفاءة الانتمائية وحصانة الهوية، والكفاءة القيمية - الخلقية (حجازي، ٢٠٠١) .

ويتعين أن يتم بناء طاقم الكفاءات هذا بالتوازي مع بعضها البعض، وبالتآزر ما بين البيت والمدرسة ومختلف المؤسسات المجتمعية المعينة بالتنشئة في بعديها الانتمائي والمستقبلي. كما يتعين أن يعاد تخطيط البرامج الدراسية كي تقوم بدورها النشط والمفصلي في بناء الكفاءة العامة للشخصية الكلية الذي يبدأ في الأسرة ومنذ بدايات الحياة ويستمر حتى الدخول في الحياة المنتجة وما بعدها. ولقد فصلنا في مكان آخر المقصود بمقومات طاقم الكفاءات هذا (حجازي، ٢٠٠١) .

إنما نشير هنا إلى مدى حاجة علم النفس إلي الخروج من أطره التقليدية في التعامل مع قضايا التربية والتعليم، وإلى تجاوز تعلم الحمامة والقط والفأر ونماذجه الكلاسيكية التي ارتهنت إسهامه في التربية وحددته في دوائر ضيقة. وليس من المغالاة في شيء المناداة بتأسيس **علم نفس التنشئة المستقبلية، وعلم نفس كفاءة الشخصية الكلية**. وهو إن لم يفعل فسيحكم على إسهامه بالقشرية والبرانية. إلا أن الإنصاف يقتضي التنويه بأن هناك محاولات رائدة في علم النفس في هذا المجال من مثل التوسع في تطبيقات الذكاءات المتعددة، والنمو المتسارع لمفاهيم الذكاء الانفعالي وتطبيقاته التربوية المشوقة والتي تدفع إلى التفاؤل. وكذلك برامج الصحة النفسية المدرسية المعاصرة التي تنمي الكفاءة الشخصية الكلية من مثل برنامج «هاد ستارت للصحة النفسية» "Mental Health in Head Start" الذي صممته جامعة جورج تاون لحساب دائرة الطفولة والشبيبة والأسرة في مصلحة الموارد الإنسانية الأمريكية (Hansen & Martener, 1990). يهدف هذا البرنامج إلى إدماج الصحة النفسية والكفاءة الاجتماعية والمهنية والروحية في كل مجالات البرنامج الدراسي، فيقترح استراتيجيات ويقترح أنشطة ويحدد موارد تخدم هذا المشروع، انطلاقاً من منظور العافية الكلية Whole wellness للشخصية. ولكي يعطي هذا البرنامج النتائج المرجوة منه فإنه يوسع من نطاق أنشطته كي تخدم الفريق العامل في المدرسة، كما يخدم الأهل وتعزيز صحتهم النفسية. وهو أمر منطقي ومفهوم حيث لا يمكن لهؤلاء جميعاً أن يقوموا بتنفيذ المشروع بالفاعلية المطلوبة، ما لم يتوافر لهم أنفسهم قبلاً القدر الكافي من فرص التعامل مع

مشكلاتهم، وإطلاق طاقاتهم النمائية هم أنفسهم .

٢ تأسيس فروع علم نفس جديدة :

فروع علم النفس المعروفة هي وليدة حاجات المجتمع الصناعي الغربي منذ بدايات القرن الماضي. قامت، كما رأينا، لخدمة أهدافه. ومع التحولات المتسارعة التي عرفها أواخر القرن العشرين والمؤهلة لأن تتوطد في واقع جديد له احتياجاته وأهدافه الناشئة، بدأت تبرز مسألة إعادة النظر في بعض هذه الفروع واستبدالها بأخرى أكثر إلحاحاً واستجابة لمتطلبات المرحلة. منها على سبيل المثال إنشاء علم نفس الشباب بدلاً من علم نفس المراهقة، مما فصلنا القول فيه. ومنها بروز الحاجة إلى علم تنشئة بدلاً من علم النفس التربوي وبعض علوم التربية التقليدية، مما توقفنا عنده في العنوان السابق. وبالإضافة إليها تبرز الحاجة في تقديرنا إلى فرعين جديدين إضافيين على الأقل:

علم نفس العولمة، وعلم النفس الاجتماعي العربي. وهناك بالطبع فروع جديدة أخرى في بقية مجالات علم النفس. وليس في ذلك بدعة من جانبنا إذا تذكرنا أن علوم الأعصاب وعلم النفس المعرفي بدأت تحل محل دراسات الذكاء. وأن هناك فروعاً ناشئة ونشطة أشرنا إليها أبرزها التفكير الإيجابي، والتفاؤل المتعلم اللذان أصبحا يحتلان حيزاً لا يستهان به من الاهتمام، حيث هناك ما يزيد على ثمانين عنواناً لمؤلفات في التفكير الإيجابي على الإنترنت.

١٢- علم نفس العولمة :

حملت العولمة معها ظواهر جديدة تستحق دراسات نفسية اجتماعية قائمة بذاتها. منها ظواهر الشباب ومتطلبات التنشئة المستقبلية. ويضاف إليها تحولات عالم الدراسة والعمل وما تتطلبانه من قدرات معرفية عالية، وما تفرضانه من تنافسية شديدة. وكلها تشكل ضغوطات نفسية غير مسبوقة. ناهيك عن تحولات عالم المهن وانعدام الضمانات الوظيفية حيث يطلب من الإنسان العامل الالتزام بالمؤسسة دون أن تلتزم هي بضمان مستقبله. وكذلك أخطار البطالة وانعكاساتها على التوافق النفسي والسلوكي. كذلك فإن تغير وتائر العمل، له انعكاساته الشديدة على استقرار حياة الأسرة وبرامجها الحياتية والعلاقات الزوجية ورعاية الأبناء .

كما أن الانفتاح على العالم الكبير وفقدان أطر الحماية الاجتماعية التقليدية، تهدد باستفراد المرء وبقائه بدون مرجعيات توفر المساندة مما عبر عنه البعض بمفهوم "الفراغ الوجودي" . ويدخل ضمن النطاق نفسه الانسلاخ من الذاكرة والتاريخ والانتماء، وتغير المرجعيات من خلال التحول نحو المستقبل وصناعته كهوية بديلة، وانعكاسات هذه الحالة على العلاقات الأسرية والمجتمعية التقليدية . ويتبع ذلك فقدان جيل الكبار لمرجعيته بشكل متزايد مما يدفع إلى إعادة هيكلة العلاقات الأسرية، وعلاقات الوالدين بالأبناء .

أما العالم الافتراضي (عالم الإنترنت) الذي أخذ يحتل حيزاً متزايداً في حياة الجيل الناشئ ويشكل مرجعيته فلقد بدأ يزاحم العالم الواقعي، ويؤثر على مرجعية المدينة كإطار حيوي للتحرك والسلوك والتفاعل. ويحمل العالم الافتراضي، إضافة إلى تغيير مرجعيات الزمان والمكان المعهودة وإزاحة المدنية عن موقعها المركزي حيث تصبح شاشة الإنترنت هي العالم البديل، احتمالات انحسار العلاقات الإنسانية الحية والمباشرة وجهاً لوجه لصالح العلاقات الإلكترونية. وهو ما ينبأ بتغيرات سيكولوجية لا نعرف بعد مداها وآثارها .

صحيح أن الإنسان الحالي هو على اتصال دائم بالعالم والآخرين من خلال الهاتف المحمول والإنترنت والبريد الساخن. إلا أننا بصدد علاقة إلكترونية، وتواصل إلكتروني، وحتى حياة عاطفية وجنسية إلكترونية. وليس بمستغرب بعد هذا كله أن نادى بعض الفلاسفة بنهاية الإنسان (حرب، ٢٠٠٠) والمقصود بذلك بالطبع إنسان المجتمع الزراعي والصناعي التقليدي. ويذهب البعض إلى الحديث عن نهاية فعلية للإنسان الطبيعي من خلال ما تطرحه ثورة الهندسة الوراثية من احتمالات مفتوحة النهاية، يصعب الآن تصور ماذا سيكون عليه الحال معها في الأجيال القادمة. ألسنا إذاً بصدد حالة كيانية مغايرة لما درجنا عليه؟ أولاً تتطلب هذه الحالة إنشاء علم نفس جديد لدراستها واستيعابها وتدبر آليات ووسائل التعامل معها ؟

ويضاف إلى ما سبق التحولات على مستوى أنماط العيش والقيم والسلوكات من خلال ثقافة اقتصاد السوق وحلول مهارة الصفقات المالية وتبادلاتها محل الجهد الإنتاجي التقليدي الزراعي - الصناعي . نحن الآن وبشكل متزايد أمام قيم شعارها الصفقة والربح السريع من خلال الانغماس في سوق رأس المال الجوال على مدار الساعة وفي كل أرجاء الكون (حجازي، ١٩٩٨). ما هي التحولات النفسية التي يمكن أن تتولد عن هذه الأنشطة التي أخذت تتجاوز الاقتصاد الإنتاجي آلاف الأضعاف؟ وبالطبع هناك ملف

الإعلام والإعلان وما يروجانه من ثقافة اللذة والمتعة الآنية، وبيع الأحلام. ولقد بدأ ذلك كله يؤدي إلى صدارة دوافع سلوكية جديدة لخصها بيك (مؤسس العلاج المعرفي) أبلغ تلخيص في ثنائية اللذة والمتعة/ السطوة والسيطرة (Beck, 1995). البون شاسع ما بين هذه الدوافع الكبرى المحركة لسلوك الإنسان المعولم وبين هرم حاجات ماسلو، ابن المجتمع الصناعي والمعبر عنه.

الإنسان المعولم مدفوع بدافعي اللذة والمتعة (مما تبشر به ثقافة العولمة)، والسيطرة والقوة والغلبة (من خلال قوة المعرفة، وقوة المال وقوة التكنولوجيا). ألا يبرر ذلك وضع علم نفس للعولمة ؟

أخيراً لا بد من إشارة سريعة إلى الأوجه المظلمة من العولمة وآثارها النفسية من بطالة متفاقمة، وحرمان الشرائح الكبرى من السكان من الضمانات والتقديمات الاجتماعية والصحية والتربوية، وتفشي الفساد الكوني (الذي تقوده مافيات أصبحت تستعصي على الدول الكبرى) والمخدرات وتجارة البشر وأعضائهم والتلوث والسياحة الجنسية، وغسيل الأموال وإغراءات الصفقات المالية غير المدروسة من خلال التلاعب بمدخرات المودعين التي حصلوها بالعرق والدماء والدموع، وانعكاسات ذلك كله على تماسك النسيج الاجتماعي والأمن المجتمعي، مع ما يرافقهما من تصدعات وعنف وعصبيات وتطرف. كلها تحتاج حقاً إلى علم نفس جديد سيكون في تقديرنا أغنى بما لا يقاس في مادته من معظم فروع علم النفس التقليدية. ولقد كان لنا إسهامات متفرقة في هذا المجال من مثل حصار الثقافة (حجازي، ١٩٩٨)، العولمة والتنشئة المستقبلية (حجازي، ١٩٩٩)، الصحة النفيسة والعولمة (الفصل التاسع من كتاب الصحة النفسية) (حجازي،٢٠٠٠) العولمة والشباب والعلاقات الأسرية (حجازي، ٢٠٠١) . كلها يمكن أن تشكل عناصر من هذا العلم المقترح .

٣-٢ نحو علم نفس اجتماعي عربي :

يتعين الاهتمام بسيكولوجيتنا في خصوصياتها، بالتلازم مع دراسة علم نفس العولمة. ذلك جزء أساسي من مشروع متكامل في دراسة الإنسان المستقبلي. وهو يدخل أصلاً ضمن مشروع توطين علم نفس عربياً، والذي طال انتظار القيام به. فنحن إلى الآن لم نفعل سوى استيراد نظريات جاهزة وتطبيقها على إنساننا وواقعنا في حالة من تجاهل الخصوصية

الثقافية، وكأن الأمر تحصيل حاصل. علماً بأن علم النفس عبر الثقافي الذي يعرف نمواً مضطرداً ينطلق أساساً ومن حيث التسمية ذاتها من مقولة خصوصية التكوين النفسي - الذهني الذي يتشكل تبعاً للتوجهات الثقافية ومرجعياتها. ولقد سبقنا الكثير من الأمم إلى عملية التوطين هذه (خصوصاً أقطار جنوب شرق آسيا، وفي مقدمتها اليابان والهند) حيث تم التعامل مع النظريات والمنهجيات بشكل انتقائي بما يتمشى مع الخصائص الثقافية الوطنية من ناحية، وبما يخدم تفعيل هذه الخصائص لتوظيفها في عملية التنمية المجتمعية العامة .من الناحية الثانية .

ونحن من جانبنا علينا أن نستوعب واقعنا وخصائصنا من أجل التنمية من جانب، وبهدف الدخول إلى حلبة العولمة من موقع التمكن من المرجعيات الذاتية من الجانب الآخر. أي أن علينا صناعة عولمتنا المميزة ثقافياً ضمن الحالة الحضارية الكونية. وحتى نفعل لا بد من استيعاب خصائصنا والقوى الدينامية المحركة لسلوكاتنا ولنظرتنا إلى الوجود.

من هنا فإن القيام بأعباء تأسيس علم نفس اجتماعي يستوعب البنى والديناميات النفسية العربية يصبح مهمة مشروعة و عاجلة. ولقد سبق لنا أن أسهمنا في هذا المشروع من خلال كتبانا بعنوان «مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور» (حجازي، ١٩٩٨)، الذي عرف انتشاراً كبيراً في العالم العربي، وذاع صيته في مختلف الأوساط الفكرية والجامعية. والواقع أن هذا التأسيس يشكل لب مشروعنا الفكري الماضي والمستقبلي على حد سواء .

ولكي ندلل على أهمية ما نطرحه وإلحاحه، نقتصر في هذا المقام على الإشارة إلى مسألتين: التكوين الفريد للشخصية القاعدية، والتحليل النفسي لنظم السلطة .

يشيع كثيراً في الحديث حول المسألة الأولى، القول بازدواجية الشخصية العربية. ومنهم من يذهب إلى القول «بالنفس المبتورة» أو حتى الانفصام الكياني ما بين الحداثة المفرطة في مظاهرها المادية والتقنية، وبين البنى الذهنية - النفسية التقليدية التي ما زالت تحكم سلوكاتنا ونظرتنا إلى الوجود. وكأن الإنسان العربي يعيش كيانين أو أكثر : أحدهما حداثي عقلاني ، والآخر تراثي تقليدي.

لا بد في البدء من تصويب هذه النظرة. فليس هناك ازدواجية، أو انفصام ممكنان، كما تعلمنا معطيات علوم الأعصاب المعاصرة. ليس هناك في الدماغ مناطق عزل وفصل وجزيرات مستقلة عن بعضها البعض. فالدماغ يعمل تبعاً لمبدأ التشبيك وإعادة التشبيك

لاستيعاب الخبرات المستجدة في شبكات توصيل عصبي دائمة التطور. وعليه فإن التكوين النفسي الناتج هو نظام توليفي وليس نظام عزل وفصل. التكوين النفسي هو نظام حي مفتوح على محيطه الحيوي يتشكل ويعاد تشكله في حالة من الثبات غير المستقر تبعاً لنوعية تفاعلاته مع محيطه، ولخصائص بنيته الداخلية. إننا نفسياً، وحتى مجتمعياً أبعد ما نكون عن صورة المدن القديمة ذات الأسوار والبوابات، نخرج منها إلى الحداثة ثم نعود داخلها إلى التقليد. إننا بصدد توليفات متغيرة ولو بشكل بطيء وغير منظور لكيان كلي.

انطلاقاً من هذا التصويب، يتعين علينا دراسة هذا التكوين النفسي الفريد في بنيته وديناميات لشخصيتنا القاعدية التي تقوم على مزيج من قوى ثلاث : التكوين الديني الحاكم لمعاييرنا ومرجعياتنا، وبالتالي مفهومنا لذاتنا وللعالم، والمحدد للكثير من سلوكاتنا؛ التكوين العشائري -العائلي بما يميزه من روابط وعصبيات وانتماءات وإرغامات؛ وطوفان الثقافات الوافدة وانفجار الانفتاح على الدنيا مما يشكل انخراطنا في العولمة. ما هي هذه الشخصية ذات التوليفة الفريدة التي تملك خصوصيتها الثقافية التي يتخصص بدراستها علم النفس عبر الثقافي؟ إنه موضوع يشكل تحدياً علمياً ومنهجياً يطرح على علماء النفس العرب، فيما يتجاوز انشغالاتهم بالقضايا الصغرى. كيف لنا أن نتفهم فعلاً هذا التكوين النفسي الفريد؟ وكيف يمكننا من ثم إطلاق طاقاته الحية لأغراض نماء إنساننا وإمساكه بزمام مصيره وصناعة مستقبله ومستقبل مجتمعه؟ ذلك ما يبرر تأسيس علم نفس اجتماعي عربي، بدلاً من الاستمرار في استهلاك المفاهيم القديمة الشائعة.

تشكل نظم السلطة بمعناها الشمولي (سياسياً، اجتماعياً، دينياً، أُسرياً) ركناً حيوياً وحاكماً من أركان كياننا النفس - اجتماعي. وهناك دراسات سسيولوجية وانتروبولوجية جيدة في الموضوع (انظر أعمال هشام شرابي على وجه الخصوص). إلا أن إسهام علم النفس ما زال جد متواضع على هذا الصعيد. وهو ما يجعل عمل القوى الموجهة لسلوكاتنا يفلت من استيعابنا لها، مع أن الغرب لم يترك جانباً من جوانب نظم السلطة الحاكمة والناظمة لمجتمعاته وسلوكات ناسه، إلا وغاص في دراستها وتحليلها.

ترتبط دراسة هذا الموضوع مباشرة بقضايا التنمية المجتمعية وبشكل وثيق. كما أنها تحكم عملية انطلاق إنساننا لبناء كيانه والإمساك بزمام صناعة مصيره. فهي إذاً ليست ترفاً فكرياً. وتزداد أهمية مثل هذه الدراسة نظراً لأن نظم السلطة لا تبقى خارجية برانية في فعلها. بل يتم تمثلها ذاتياً وتتحول من ثم إلى قوى محركة من الداخل؛ وهنا مكمن الأهمية.

ونحن نطرح في هذا الصدد مفهوم اللاوعي (اللاشعور) الثقافي في بحث نظم السلطة التي أصبحت جزءاً من تكويننا النفسي، بالمقارنة مع اللاوعي بالمعنى الفرويدي. هذا اللاوعي الثقافي يحتاج إلى تحليل علمي منهجي كي نستوعب كيف يتحرك إنساننا، وكيف يتصرف هنا أيضاً يمتزج الديني بالعشائري والأسري كي يولد نظم التسلط المعروفة.

يضاف إلى هذين الملفين ثالث لا يقل عنهما أهمية يتمثل في صدارة «النحن» على «الأنا»، أي الانتماء الجماعي على الفردية التي بني عليها علم النفس الغربي. فهذا الانتماء على اختلاف مستوياته (العشائرية، أو الأسرية) ما زال يشكل المرجعية الأساس في بنائنا النفسي، مما قام الغرب بكسره خلال عملية التحول الاجتماعي التي واكبت الثورة الصناعية. صحيح أن هناك فردية لدينا، وقد تصل حد الأنانية، إلا أنها تنشط ضمن مرجعية الجماعة. أقرب مثال على ذلك هو نشوء الأسر النواتية في العالم العربي التي ما زالت ذات علاقة ممتدة. الأسرة النواتية على مستوى الحياة اليومية ما زالت تقوم ضمن شبكة من العلاقات العائلية التي توفر لها السند وتمارس عليها الضوابط والضغوط.

ضمن صدارة (النحن) يغلب الانتماء والولاء كمعيار لتقييم سلوك الشخص سواء في العمل أو خارجه، مقارنة بالأداء الذي يُعَدُّ المعيار في العالم الغربي الصناعي. كما يشيع التوجه نحو المكانة والبحث عنها Status oriented Society كمعيار للقيمة في مقابل معيار الإنجاز Performance oriented society الذي يحتل مكان الصدارة في الغرب. وبالطبع فإن كل من الولاء والمكانة ينعكسان بشدة على سلوكات الإنجاز، وعلى نجاح برامج التنمية، مما يتعين القيام بدراسته بعمق .

نقتصر على الإشارة إلى هذه الموضوعات للتدليل على مدى إلحاح الحاجة إلى تأسيس هذا العلم وصولاً إلى استيعاب فعلي للبنى الاجتماعية - النفسية المحركة لسلوكاتنا والمحددة لتوجهاتنا. إذ بدون هذا الاستيعاب لا يمكن ضمان الإمساك بزمام المصير وصناعته، طالما أنه يقوم على إطلاق الطاقات الحية وحسن توظيفها .

ثالثاً : التحول في المنظور والمنهجية :

تطرح قضايا الشباب والتنشئة والعولمة، كما معرفة خصائصنا النفسية- الاجتماعية مسألة التحول في المنظور الذي طالما ساد في علم النفس؛ وهو المقاربة الفردية. كل هذه الموضوعات تتطلب توسيع نطاق النظرة من الفردي إلى الجماعي والمجتمعي مما يتعين على

علم النفس القيام به . نحن بإزاء ظواهر وقضايا تتطلب التحول من المنظور المصغر Micro (الفردي) إلى المنظور المكبر Macro (المجتمعي) بل وتجاوزه وصولاً إلى المنظور الأضخم Mega (المعولم). لم تعد المسألة قضية مقاربات لأفراد رغم أهمية الاستمرار بخدمتهم. بل أصبحنا بإزاء ظواهر ذات امتدادات كونية من مثل ظواهر الشباب، والتنشئة المستقبلية، وقضايا العولمة. وكلها قضايا تحتاج إلى مقاربات تتجاوز ما ألفنا من تعامل مع وحدات مصغرة. وقد نجد ذاتنا بإزاء إعادة صياغة تسمية علم النفس ذاته بوصفه علم دراسة نفسيات الأفراد وسلوكاتهم .

فهذه الظواهر جميعاً تتخذ خصائص مختلفة كلياً في البنية كما في الدينامية، عما نألفه في دراسة الأفراد وخدمتهم، وتتجاوزها في النوعية وليس في مجرد المستوى. سنكون راهناً وفي المستقبل مدعوين إلى دراسة ظواهر كلية عالية التعقيد، لا تنفع معها بالتالي المنهجيات الفردية. فظاهرة العنف مثلاً تتجاوز، كما هو معروف النطاق الفردي، كي تتخذ شكل التصفيات الجماعية على اختلافها (العرقية والطائفية أو المناطقية)، حين تتجلى كحروب هوية إلغائية. كذلك فإن تنميط الشباب في ثقافة العولمة تتعدى هذا أو ذاك من الناشئة كي تتخذ طابع التيار أو الموجه ذات الدينامية والقوة والتوجه الذي يفلت من أي محاولة لتأطير أو تفسير فردي.

على علماء النفس الخروج إذاً من قواقعهم الفردية وعزلتهم المختبرية أو العيادية التي ألفوها واطمئنوا إليها وبرعوا فيها، وولوج غمار التحدي الكبير المتمثل في مقاربة الظواهر الكبرى ذات التعقيد المتعاظم . ذلك تحول أساسي في المنظور لا بد من الإقدام عليه، إذا أراد علم النفس أن يحافظ على مكانته ووظائفه، والاستمرار في تقديم إنجازاته.

لسنا بصدد إسقاط الفرد أو إلغاء الاهتمام به طبعاً، بل بصدد مواكبة تحولات العصر، وتطوير الرؤى والمفاهيم والمنهجيات القادرة على التعامل العلمي معها. من هنا تتجلى أهمية دعوتنا لتأسيس علم نفس اجتماعي عربي بالتعاون مع علم نفس الشباب والتنشئة والعولمة. فكلها علوم جماعية كونية تتجاوز النماذج الفردية وقواعد ممارستها.

يدخلنا هذا التحول في المنظور مباشرة في الشق المنهجي من الموضوع، والذي يتطلب بدوره إعادة النظر في الممارسات ونطاقها وأدواتها، وصولاً إلى علم الإنسان الكلي وما يقتضيه من تكامل المنهجيات .

نحن بإزاء ظواهر عالية التعقيد، سواء تعلق الأمر بالشباب أو التنشئة أو العولمة وقضاياها، وهي تتطلب مقاربة منهجية مركبة بدورها. ففي موضوع الشباب على سبيل المثال يتداخل البيولوجي مع النفسي والتربوي والثقافي والإعلامي والمعلوماتي والاقتصادي والمجتمعي والسياسي. ولم يعد الفصل ممكناً بين هذه العلوم وإسهاماتها للإحاطة بالظاهرة، تحليلاً وتشخيصاً وتخطيطاً وعلاجاً. شأنها في ذلك شأن أسواق المال ذات النجومية المتصاعدة. هنا أيضاً يتداخل الاقتصادي مع السياسي والجغرافي والاجتماعي والنفسي والإعلامي، فيما هو معروف من تقلبات هذه السوق، وتداعيات التحول في أي من القوى المحركة لها، من خلال تحريك دينامية تفاعلية تولد نتائج غير منتظرة في العديد من الأحيان. إذ يكفي أحياناً خبر ما لتتأثر السوق المالية وأوراقها، أو السوق النفطية وأسعارها، في عالم يتبادل الاعتماد، أصبح فيه كل شيء مرتبطاً بكل شيء آخر. وتصعد العولمة، بما تتصف به من تهاوي حدود الزمان والمكان، مما أصبح يسمى بـ «تأثير الدومينو» في السوق المالية، أو الاقتصادية، حيث ينعكس التدهور في أسعار بورصة من البورصات الدولية الكبرى على ما عداها من بورصات. ويعود ذلك فينعكس على الاقتصاد على شكل إفلاسات وتسريحات عمالية، وموجات بطالة تنعكس بدورها أزمات اجتماعية وأسرية وزوجية، وتهديدات للأمن المجتمعي. أضحت الظواهر بحاجة إلى نظم بحث معقدة للتعامل معها واستيعابها. وبدأت الضرورات تفرض ذاتها لتكامل علوم السياسة والاقتصاد والإدارة والتقنية مع علوم الانتروبولوجيا والاجتماع والإعلام وعلم النفس في مقاربات متكاملة.

وأضحى كل علم مطالباً بالانفتاح على العلوم الأخرى والخروج من قوقعته واختصاصه الضيق، كي يتحول إلى جزء من مقاربة كلية ذات طابع توليفي مركب. وهو ما بدأ يعرف بعلم التعقيد ومنهجيات التعقيد، التي أخذت تعمم من دراسة المناخ في عوامله المتداخلة والمتفاعلة تبعاً لنظرية الفوضى، إلى دراسة الظواهر الإنسانية عموماً.

ذلك ما دعا كبريات الشركات الأمريكية إلى الطلب إلى الجامعات الرائدة الإقلاع عن إعداد حملة دكتوراه في اختصاصات دقيقة، لم تعد تلبي متطلبات التعامل مع سوق العمل العالمي بالغة التعقيد. أخذت هذه الشركات تطالب الجامعات بإعداد قيادات ذات أفق شمولي وذات قدرة على التعامل مع الظواهر بمقاربات كلية، لأنها الوحيدة القادرة على إدارة الأعمال. أصبح مطلوباً تخريج حملة شهادات عليا تجمع إلى الاختصاص الأساسي

في الهندسة أو التقنية مثلاً، معرفة متكاملة في السياسة والاقتصاد والإدارة والاجتماع والإنتروبولوجيا والمعلومات وعلم النفس عبر الثقافي.

على علم النفس إذاً أن يخرج من نماذجه الفردية الضيقة سواء في المختبر أو العيادة، أو من خلال الاستبانة والاختبار وما تبعهما من فروض صفرية، وتعامل مع متغيرات لا تمت بصلة إلى الواقع (من مثل العمر والجنس والمرحلة التعليمية ومكان السكن) والتي تطبق بشكل جامد ونمطي على أي مشكلة بحثية، وبصرف النظر عن مدى تلاؤمها معها. ما هي العلاقة مثلاً ما بين الصحة النفسية، وكل من السن والجنس والمرحلة التعليمية ؟ على علم النفس كذلك أن يخرج من ممارساته البرانية هذه التي تجانب الظواهر في قواها الحية المحركة لها فعلياً. وعليه أن يتكيف مع الحاجة إلى الانفتاح على بقية العلوم، ويتعلم التعاون معها في منهجيات بحثية متكاملة هي وحدها القادرة على التعامل مع الواقع الحي .

من خلال إعادة التكيف الهيكلي هذه يمكن لعلم النفس أن يحتفظ بدور أساسي له في بناء المعرفة المستقبلية . وهو إن لم يفعل سيكون مصيره التهميش والحصار في مواقع معزولة عن حركة الحياة المتسارعة والمتصاعدة التعقيد والتفاعل. وعلى علماء النفس، كسواهم من علماء بقية فروع المعرفة، تدبر أمر هذا التعاون والتكامل ومنهجياته. وعليهم جميعاً التلاقي والتواصل والتفاعل لوضع النماذج المعرفية والبحثية التي أصبحت تقتضيها الحالة الحضارية الجديدة التي أخذت تفرض واقعها. أنها دعوة للخروج من الدروب المألوفة وتلمس مسالك مستقبلية غير مسبوقة. إنها بالطبع مهمة ليست يسيرة، ولا هي مريحة. إلا إنها تشكل ضمان الحفاظ على الدور والمكانة. ويتعين أن يتلاقى في سبيلها في خطوة أولى أصحاب الاختصاص من مختلف فروع علم النفس لتطوير نماذجهم وتكاملها. وهناك تباشير مشجعة على ذلك حيث أخذت تتكامل مثلاً النظرية السلوكية والمعرفية والسيكوديناميةفي طرق علاج جديدة ذات فاعلية أكثر تقدماً من الطرق الخاصة بكل منها. إلا أن الأمر أصبح يتجاوز هذه المحاولات المحدودة وصولاً إلى تحولات شبه جذرية.

رابعاً : خلاصة :

هكذا يجد علم النفس وضعه ما بين تحدي البقاء مع الهندسة الوراثية وعلوم الأعصاب، وتحدي إعادة التكيف الهيكلي مع سسيولوجيا التحولات الكونية المتسارعة التي أدخلتنا في مرحلة حضارية جديدة .

إنه مدعو بدوره إلى ولوج عملية التحولات الذاتية كي يكتسب حقه في المكانة من خلال وظائف ومنظورات ومنهجيات جميعها جديدة. حتى على الصعيد الفردي الذي شكله ميدان نشاطه التقليدي يتعين عليه أن يعيد النظر في الاهتمامات والممارسات. وقد يكون جيل علماء النفس الحالي، وأجياله الطالعة بإزاء الانخراط في عملية نسف الروتين والرتابة والانفتاح على الدنيا. وقد يكون صعباً الخروج من الدروب السالكة والرؤى والممارسات المألوفة بما فيها من راحة وطمأنينة وركون إلى يقينيات علمية يتم التمسك بها. إلا أن التحدي مفروض وعلينا قبوله لتجديد الحيوية، والفوز بفرصة نماء حقيقية .

إذا كان هذا هو التحدي الذي يتعين على علم النفس عموماً النهوض إلى التعامل معه، فإن علم النفس العربي يجد ذاته أمام تحدٍ مضاعف . فلقد آن أوان الاستيعاب الفعلي والجاد لهذا العلم في مرتكزاته الإيديولوجية الخفية وتمحيص مدى جدواها في التعامل مع واقعنا بما له من ظروف انتقالية تتجاوز في تعقيدها التطور الغربي بما يتصف به من استمرارية. علينا أن نحسن الاستيعاب ونتقن التوطين في آن معاً. ونحن إذا حاولنا وأحرزنا بعض التقدم سنتمكن من فرض مشروعيتنا الوظيفية. أما إذا لم نفعل فسيكون نصيبنا الذبول بسبب الانقطاع عن تيار الحياة، والوقوع في التاريخ الآسن.

والغريب أن علم النفس الأقرب من حيث المبدأ والتعريف والوظيفة من الإنسان العربي في قواه الحية ومعاناته وقضاياه وتطلعاته، مازال متأخراً عن بقية العلوم الإنسانية التي عرفت محاولات أولية طيبة في التوطين عربياً. على كل حال إنه لمما يثير الحيوية ويجدد الحماس أن نقوم بهذه المهام الكبرى المطروحة على علم النفس عالمياً وعربياً. وإنه لمما يعزز الإحساس بالقيمة والأهمية أن نكون مدعوين إلى التعامل مع قضايا كبرى تدعو علماء النفس بإلحاح إلى تلبية متطلباتها، بدلاً من الاستمرار في تكرار ممارسات سجينة نظام معرفي يتعامل مع الجزئيات برتابة مهددة لنمائه .

المراجـــع

أدلمان، جيرار .(١٩٩٩). نحو بناء صورة للمخ . **مجلة الثقافة العالمية**. عدد ٩٥ ، ١٠٨ – ١٢٠ .

حجازي، مصطفى .(١٩٩٨). **التخلف الاجتماعي : مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور** (ط٧) . بيروت : معهد الإنماء العربي .

ـــــــــــــــ .(١٩٩٨). **حصار الثقافة : بين القنوات الفضائية والدعوات الأصولية** . بيروت : المركز الثقافي العربي .

ـــــــــــــــ .(١٩٩٩). **العولمة والتنشئة المستقبلية . مجلة العلوم الإنسانية. عدد ٢** ، ١٦–٤٧ .

ـــــــــــــــ .(٢٠٠٠). **الصحة النفسية : منظور دينامي تكاملي للنمو في البيت والمدرسة** . بيروت : المركز الثقافي العربي .

ـــــــــــــــ. (٢٠٠١). **العولمة والشباب والعلاقات الأسرية. ندوة الأسرة والشباب وتحديات القرن الحادي والعشرين** . ٢٠١٩/٥/٢٠٠١. المنامة . البحرين: وزارة العمل والشئون الاجتماعية .

حرب، علي .(٢٠٠٠). **حديث النهايات: فتوحات العولمة ومآزق الهوية**. بيروت: المركز الثقافي العربي .

الخطيب، جمال .(١٩٩٥). **تعديل السلوك الإنساني** (ط٣) . الكويت: مكتبة الفلاح.

العاني، نزار .(٢٠٠١). **الشخصية الإنسانية والبعد المغيب: أزمة العلوم الإنسانية في تعليمنا الجامعي المعاصر**. ندوة تفعيل التعليم العالي في خدمة الأمة ٢٠٠١/٤/١٠٩. أغادير . المغرب : جامعة الأزهر .

خليفة، عمر هارون .(٢٠٠٠). علم النفس في اليابان : التأسيس العلمي والتوطين المتناغم . **مجلة العلوم التربوية والنفسية، ١** (١) ، ٤٧–٨٧ .

فرنون، ومونكاستل .(١٩٩٩). علم المخ في نهاية القرن . **مجلة الثقافة العالمية**، العدد ٩٥ ، ١٦٥ - ١٧٤ .

فنيانس، غسان .(١٩٨٨). الفردية. **الموسوعة الفلسفية العربية، مجلد ٢**. بيروت: معهد الإنماء العربي، ٩٣٠ - ٩٤٠ .

معتوق، فريدريك .(١٩٨٨). علم اجتماع المعرفة في الغرب. **الموسوعة الفلسفية العربية، مجلد ٢**، ٨٨٠ - ٩١٣ .

وهبة، مراد .(١٩٨٨). التجريبية. **الموسوعة الفلسفية العربية، مجلد ٢** ، ٢٦٥– ٢٧٨

لابلانش، وبونتاليس (١٩٩٧) . **معجم مصطلحات التحليل النفسي**، ط (٣) (ترجمة مصطفى حجازي) : نرجسية، ٥١٢–٥١٤.

Azar, B. (1997). Human traits defined by mix of environment and genes. **APA Monitor, 28** (5), 27-29 .

Beck, J. (1995). **Cognitive therapy : Basics and beyond.** New York: The Guilford Press.

Davison, G. C., & Neale, J. M. (1998). **Exploring abnormal psychology.** New York : John Wiley & Sons.

Gardener, H. (1983). **Frames of mind : the theory of multiple intelligences.** New York : Basic Books.

Golman, D. (1997). **Emotional intelligence.** New York: Butam Books.

Hansen, K. A. & Martener, J. S. (1990). **Mental health in Head Start: A wellness** approach. Child development center. Georgetown University. ERIC .

Padesky, C. A.; Green Berger, D. (1995). **Mind Over Mood.** New York: The Guilford Press.

Seligman, M. (1998). What is the good life ? **APA Monitor,** 28 (10).

Skinner, B. F. (1974). **Beyond Freedom and Dignity.** London: Pelican Books.

Vasta, R.; Haith, M.; Miller, S. (1995). **Child Psychology: The modern science.** New York: John Wiley and Sons.

Westen, D. (1999). **Psychology: Mind, brain and culture.** New York : John Wiley and Sons